# تقدم

الحمدُ لله وحدَهُ، وصلى الله وسلم على من لا نبيَّ بعدَهُ، وعلى آله وصحبه وبعد.

فقد شغلت نظرية «العَقْدِ الاجْتِمَاعِي» أو «مبادئ الحقوق السياسية» أذهان الفلاسفة والمفكرين، فكتب عنها الكثيرون، ويعدُّ «جان جاك روسو» أبرزَ الباحثين في مجال «العقد الاجتماعي» لما تتصف به آراؤه من ثورية جعلته خير معبِّرٍ عن مشاكل فرنسا السياسية والاجتماعية في فترة ما قبلَ الثورة الفرنسية.

فقد كان يهدف من خلال كتاباته إلى البحث عن حلول صحيحة وناجعة للمشكلات القائمة، مما جعله يكتسب شهرة واسعة في سائر أنحاء أوروبا، بل كان له الأثر الأكبر في الحركات الثورية التي قامت في كل من أمريكا وفرنسا وغيرهما من الدول.

ونحن إذ نقدم لكتابه «العقد الاجتماعي» الذي قام على ترجمته العَلَّامة «عادل عمر زعيتر» نعرِّف بالعقد الاجتماعي، والهدف منه، وأهم من بحث نظريته، مركزين على صاحب الدراسة «روسو»، كل ذلك بإيجاز واختصار.

## تعريف المصطلح:

العقد الاجتماعي، هو عبارة عن اتفاق مجموعة من الأفراد فيما بينهم لتكوين «مجتمع» بناء على قاعدة الفائدة المتبادلة وتجنب الأضرار، مقابل تسليم الفرد لإرادة الجماعة، ممثَّلَة بالسلطة[1].

وبصورة أوضح: هو اتفاق يكتبه حكماء المجتمع الهدف منه بناء مجتمع

(1) الحقوق السياسية د/ محمد أحمد محمد ص15.

متكامل أساسه العدل والمساواة بعيدًا عن الفوضى أو منطق شريعة الغاب، على أن يكون مصدر السيادة والسلطان في الدولة هو العقد[1].

وهذا العقد لا يعدو أن يكون تعبيرًا سياسيًا عن المقصود بالدستور الذي ينظم سلطات الدولة وعلاقاتها ببعضها وكذلك علاقاتها بالمواطنين، وهو يقوم على مجموعة من المبادئ الأساسية في مقدماتها: دولة القانون والمؤسسات، وأن الشعب هو مصدر السلطات، واستقلال القضاء، وتداول السلطة وحرية تكوين الأحزاب، إلى غير ذلك من مكونات الدولة بالمفهوم المعاصر.

## النظرية وأصحابها:

إنَّ نظرية «العَقْد الاجتماعي» التي عُرفت منذ أمد طويل لدى كثير من المفكرين على امتداد التاريخ الإنساني قد تطورت - بعد ذلك - على يد مجموعة من السياسيين والفلاسفة.

وزاد الاهتمام بها والحديث عنها حينما قامت الدراسات المعاصرة في القرون المتأخرة على يد كل من «هوبز» و«لوك» و«هيوم»، و«جان جاك روسو»، وقد كان لكل واحد منهم - رغم اختلاف البيئات والجنسيات - كتاب يحمل نفس العنوان «العقد الاجتماعي»، وقد درس المختصون هذه الكتب ونقدوا آراء من كتبوا فيها، وقاموا بعمل مقارنات بين كل منهم وبإيجاز يقول السير «إرنست باركر»:

لقد تفوق «روسو» على «لوك» في كثرة ما كتبه، وأكثر من ذلك، في جمال أسلوبه الأخاذ. فقد استطاع «روسو»، وقد كتب باللغة الفرنسية التي كانت اللغة العالمية في القرن الثامن عشر، أن يجذب الجمهور الأوروبي كله، وهو الأمر الذي لم يستطعه «لوك» مطلقًا. بيد أنه كان أقل من «لوك» في استقلال الفكر وقدرة التأمل الفلسفي ونضوج الحكم. واعتمد «روسو» في الغالب على النظرية السائدة لمدرسة «القانون الطبيعي» التي كانت شائعة في ذلك الوقت كما شرحها

(1) وقفة مع العقد الاجتماعي د/ مصطفى عبد العظيم ص12.

«جروتيوس» و«بوفندوف» في القرن السابع عشر، وكما شرحها في عصره اثنان من الكتاب السويسريين هما «جاك جين بورلاماكي» «الذي كان في وقت ما عضوًا في «مجلس الدولة في جينيف» والذي نشر في سنة **1747** كتابه «مبادئ القانون الطبيعي» ونشر كتابه الآخر «مبادئ القانون السياسي» بعد موته في سنة **1751**، والثاني «أمريخ دي فاتل» من أبناء نيو شاتل الذي نشر في سنة **1758** كتابه «قانون الشعوب» أو «مبادئ القانون الطبيعي»، وعلى ضوء مدرسة «القانون الطبيعي» هذه التي كانت سائدة في عصره يجب أن يفسر «روسو» تفسيرًا سليمًا.

لقد قبل «لوك» «وروسو» فكرة العقد الاجتماعي، وإن كان ذلك بطريقتين مختلفتين وبدرجات متفاوتة، ولكن هيوم، وهو صاحب عقلية تاريخية أكثر منهما وأميل إلى المحافظة في معتقداته، فقد كان ناقدها، إذ دفعه ذهنه المتشكك إلى تناول النظريات السياسية - نظرية الحق الإلهي ونظرية العقد الاجتماعي، وبصفة خاصة الثانية - بشيء من الواقعية الحادة اختلط بها شيء من التلطف شبه الساخر. فيبدو وكأنه يقول «إن نظرياتكم المختلفة فيها شيء ما، ولكنه شيء أقل مما تعتقدون... أقل منه كثيرًا».

وقد نشر بحثه «العقد الأصلي» أول ما نشر «مع مقال عن «الطاعة السلبية» ومقال آخر ذي مغزى عن «الطابع القومي»» في طبعة جديدة من «مقالات، أخلاقية وسياسية» ظهرت في سنة **1748**، ويبدأ المقال من قضية مفادها أن نظريتي الحق الإلهي والعقد الأصلي كلاهما من صنع حزب - وهي قضية توحي بأن بناتهما هم حزبا «الهويج» و«الثوري» الإنجليزيان خلال المائة سنة الماضية. وهذه القضية قابلة للدحض: فلكل من النظريتين مجال أوسع من إنجلترا، وكلاهما ترجعان إلى العصور الوسطى، أو حتى قبل ذلك. وعندما ينهي «هيوم» مقاله بأنه «لا يكاد يكون هنا، حتى عهد قريب جدًا، من يتصور أن الحكم قام على تعاقد» ويخلص من ذلك إلى أنه «مما لا ريب فيه أن الحكم لا يمكن، عمومًا، أن يكون ذلك أساسه»، عندما يقول ذلك، فهو لا شك يسير في الطريق الخطأ[1].

(1) مقدمة السير أرنست باركر للعقد الاجتماعي ترجمة عبد الكريم أحمد ص **26**.

## وقفة مع روسو:

وبعد كلام طويل حول هذه المقارنة التي أجراها «أرنست باركر» يفرد الحديث عن أهم القضايا التي تعرض لها «جان جاك روسو»، موضحًا نظريته إلى هذا العقد القائم بين الحاكم والشعب من وجهة نظر «باركر» موضحًا باستفاضة قائلًا:

هناك ثلاث قضايا نستطيع أن نتقدم بها فيما يتعلق بالنظرية التي ينطوي عليها «العقد الاجتماعي» «لروسو». فهو أولًا ينظر إلى الدولة بوصفها قوة تقدمية ترفع الإنسان بالتدريج إلى أعلى من حالته البدائية. إذ يذهب إلى أن حالة الطبيعة كانت غير مستقرة وصارت غير محتملة، وذلك بعيد كل البعد عن الدعوة إلى العودة إليها. وأملت الحاجة إلى المحافظة على الذات عقدًا أبرم بواسطة الإرادة الحرة للجميع، ونتج عن المجتمع الذي تكون بهذه الطريقة إقامة العدالة وبلوغ مستوى أخلاقي أسمى «لأنها أخلاق قائمة على أساس عقلي ومدركة لذاتها». ويؤمن «روسو» بمعجزة الدولة الحقة التي تشيد على أساس عقلي وتستمر تعمل على أساس من ضبط النفس العقلي - وهي المعجزة التي تحول الحيوان الغبي المحدود إلى كائن ذكي. والدولة التي يهاجمها - وهو يهاجم الدولة فعلًا - هي الدولة المنحرفة المستبدة وحدها، التي لا تقوم على أساس عقلي لأنها ليست تعبيرًا عن الإرادة العقلية الحرة وليست أداتها.

والقضية الثانية التي تنبني على الأولى هي أن «روسو» ليس عاطفيًا اتجه بعواطفه نحو الطبيعة، هو داعية عقلي قوي الذي لا يلين للمجتمع السياسي. فهو يعترض على النظرية الأبوية **Patriarchal** في الدولة، كما يعترض على النظريات التي تجعل القوة أساس الدولة، لأن هذين النوعين من النظريات لا يهيئان أساسًا عقليًا للالتزام السياسي، والأساس الوحيد للدولة الذي يعترف به هو الأساس العقلي للإرادة العاقلة. وإلى هنا نستطيع أن نتفق مع نظريته، إلا أن لنا أن نضيف إلى ذلك أنه كان يستطيع أن يهرب من ضباب الخلط ويتجنب تلك المعجزة التي لا تفسير لها وهي معجزة انبثاق حالة تعاقدية فجأة من ظروف

بدائية وغبية إلى وهج الاستنارة والمدنية الساطع، لو أنه توقف حتى يفرق بين المجتمع والدولة. إن مجتمعات الأمم حقيقة واقعة من حقائق التطور التاريخي، لم ينشئها أي عقد للمجتمع، بل هي ببساطة وضع كائن. والدولة التي أساسها هذا المجتمع قد تكون، أو قد تصبح في لحظة بذاتها من وجودها «كما حاولت فرنسا أن تفعل في سنة **1789**»، نتاج عمل إنشائي يقوم به أعضاء المجتمع، بوساطة جمعية أو هيئة بهدف وضع دستور قرر هؤلاء الأعضاء أن يعيشوا مستقبلًا في ظله، وعلى هدى أسسه بوصفهم اتحادًا قانونيًا. وفي هذه الحالة، وبهذا المعنى، يمكن القول بأن الدولة تقوم على نوع ما من العقود؛ ولكن لا يوجد أي عقد تقوم عليه الأمة أو تقوم عليه فكرة المجتمع الذي على صورة أمة.

والقضية الثالثة التي تكمل الثانية وتوضحها هي أن «روسو» يرفض قيام الدولة على أساس من الإرادة البحتة، ويصر على أنها تقوم على إرادة من نوع معين - إرادة عامة تهدف إلى تحقيق الخير العام. وعندما يتحدث عن هذه الإرادة العامة **Volonté Générale**، يستعمل النعت للدلالة على صفة الهدف الذي يراد تحقيقه وليس للدلالة على كمية الفاعلين أو الأشخاص الذين يقومون بمحاولة تحقيقه. فهو ينبذ مجرد إرادة الجميع بوصفهم أفرادًا.

ويتحدث «إرنست باركر» عن شخصية «جان جاك روسو» مقارنًا بينه وبين «هوبز»، و«هيوم» قائلًا:

لم يكن «روسو» فيلسوفًا - على الأقل بالمعنى الذي كان به «لوك» و«هوبز» و«هيوم» فلاسفة. لقد كان أقرب إلى أن يكون أديبًا عبقريًا يتمتع بإحساس مرهف، وكان يستمد الأفكار من الهواء المحيط به بوساطة بصيرة تجذب الأفكار إليها، وجعل من نفسه داعية لها لا يقارن به أحد. كما أنه لم يكتسب أية خبرة عملية بالشئون السياسية، كما فعل «لوك» عن طريق صحبته مع «شافتسبري»، باستثناء ما كان يلتقطه من ملاحظته لمجريات الأمور في جنيف. وكان من أصحاب النظريات التي تعتمد على الفروض الأولية **apriori**؛ ولما كان ينتمي إلى عصر «الموسوعيين» فقد استطاع أن يكون النظريات بسهولة في عدة

ميادين. ودخل ميدان النظريات السياسية فزانه وأضاءه «أو خطف الأبصار فيه» بعدد كبير من المؤلفات. وأكبر هذه المؤلفات هو كتابه «عن العقد الاجتماعي» الذي كتبه في سنة 1762؛ بيد أنه كتب قبل ذلك «حديث في المساواة» في سنة 1755 و«الاقتصاد السياسي» «وهي مقالة في دائرة المعارف».

**ويعلن بكل وضوح:**

أن روسو في الواقع، وفي نهاية المطاف، شمولي. وليست بنا حاجة للمبالغة في أهمية «المشرع» لنصل إلى هذه النتيجة، فحتى إذا تركنا المشرع تمامًا تظل النتيجة واحدة. وتصور روسو ديموقراطيًا كاملًا، إن ديمقراطيته الكاملة تظل مع ذلك أوتوقراطية مضاعفة، فهو لا يترك أي وقاية ضد السلطة المطلقة التي يتمتع بها معقد السيادة. ومما له مغزى أن «العقد الاجتماعي» ينتهي باقتراح الاضطهاد الديني. فإن الشخص الذي يقبل علنًا مواد «العقيدة المدنية»، التي يحددها معقد السيادة، ثم يتصرف كما لو كان لا يؤمن بها - يعاقب بالموت. إن روسو كان بعيدًا كل البعد عن الإيمان «بحقوق الإنسان» إلى درجة أنه ذهب إلى الناحية العكسية تمامًا. فقد كان مقتنعًا تمامًا بأنه يكفي أن يكون الإنسان متمتعًا بالحقوق السياسية «بوصفه شذرة من المجموع» إلى حد أنه نسى ضرورة تمتعه بحقوق «الحرية المدنية والدينية».

إن «روسو» كان رومانسيًا قبل الحركة الرومانسية؛ وقد مهد الطريق للأسلوب الجديد للفكر الألماني الذي أتى بعد ذلك مقدسًا «الفرد في الأمة» أضفى على القانون طابعًا تاريخيًا بوصفه تعبيرًا عن فترة بذاتها عن الإرادة العامة أو إدراك الحق النابع من هذا الفرد. إن الهيجلية و«المدرسة التاريخية في القانون» تستطيعان أن تجدا غذاءهما في «روسو»، كما وجد هو نفسه غذاءه في مدرسة «القانون الطبيعي»؛ فبينما نرى آثار الماضي تتسرب في تعاليمه، نجد أن بذور المستقبل أيضًا تنبثق منها». كان ذلك هو الوضع العام والتأثير العام «للعقد الاجتماعي».

إن كتابًا يضم اتجاهين مختلفين بهذه الدرجة يمكن بسهولة تفسيره على

وجهين متناقضين، وقد ظل كتاب «العقد الاجتماعي» زمنًا طويلًا يفسره معظم المفكرين «وكذلك جمهور الناس» على أنه أنشودة مديح في «الفردية». فأول عبارة فيه كانت دليلًا كافيًا: «لقد ولد الإنسان حرًا، وهو مكبل بالقيود في كل مكان». «ولكن لا يتطلب الأمر أكثر من أن نقرأ عدة صفحات فقط بعد ذلك، وسنجد في نهاية الفقرة الأولى من الفصل الثامن، أنه «ينبغي على الإنسان أن يحمد دوامًا تلك اللحظة السعيدة» - لحظة العقد الاجتماعي - التي انتشلته إلى الأبد من حالة الطبيعة التي ولد فيها، و«حولت ذلك الحيوان الغبي محدود الأفق إلى كائن ذكي وإنسان». وهكذا نرى أن الدفة تتحول بسرعة. بيد أن هناك أسبابًا أخرى، غير مجرد القراءة العابرة للكلمات الافتتاحية من «العقد الاجتماعي»، تبرر هذا الاتجاه في التفسير. فعلى الرغم من أن الحجج التي جاءت في «العقد الاجتماعي» تدل، إذا درست بعناية أكثر، على تحول سريع من «فردية» في البداية إلى «جماعية». فإن البحث الذي سبقه عن«أصل عدم المساواة وأسسها»، والذي كتب للحصول على جائزة أعلنت عنها أكاديمية ديجون ولكن لم يفز بالجائزة، كان عملًا موحدًا أكثر، ودعوة أكثر نقاء للعودة إلى الطبيعة، وأنشودة خالصة أكثر في مديح «الفردية».

## نقد النظرية:

لقد أتفق فلاسفة «العقد الاجتماعي» الثلاثة هوبز، وجون لوك، وجان جاك روسو» على أن الإنسان عاش في بداية وجوده حياةً فطرية وحرية مطلقة، وقد أطلقوا اسم «العقد الاجتماعي» على الحدث الذي نقل الإنسان من حياته تلك إلى تلك الحياة الاجتماعية المنظمة.

ويُجمعُ الثلاثة هوبز، ولوك، وروسو على أن العقد الاجتماعي نشأ بقرار من الأفراد، وبالتالي فإن السلطة نشأت بمحض إرادتهم.

تقوم العلاقة الصحيحة - في العقد الاجتماغي - بين السلطة وأفراد المجتمع على ثلاثة مرتكزات رئيسية هي: الحرية - والعدالة - والمساواة.

لكن نظرية العقد الاجتماعي تعاني من اضطرابات وتناقضات في عدد من الجوانب أهمها:

1 - تصور الفلاسفة لطبيعة المرحلة السابقة على الحياة الاجتماعية المنظمة.

2 - عدم ترتيب الظواهر ووصفها بشكل يتفق مع العقل والمنطق.

3 - تأثر فلاسفة العقد الاجتماعي الثلاثة بالأحداث التي عاصروها، الأمر الذي جعلهم يوجهون جُلَّ فلسفتهم لمسايرة مآرب شخصية.

4 - إهمال فلاسفة العقد الاجتماعي الثلاثة ومن أتى بعدهم لما يتجلى في الشريعة الإسلامية من صور صحيحة للعقد الاجتماعي، الأمر الذي يدعونا إلى بيان وجهة الإسلام وشريعته في قضية «العقد الاجتماعي».

## الإسلام والعقد الاجتماعي:

لم يلحظ أكثر من كتبوا في «العقد الاجتماعي» سبق الإسلام وشريعته دراسة بل وتحقيق هذا العقد في الواقع العملي بين الحاكم والمحكوم.

ولم يدركوا أن الإسلام سبق دعوة «جان جاك روسو»، «هوبز» و«لوك» وغيرهم من الساسة والفلاسفة بمئات السنين، ولو دقق الباحث الفَقِهُ في «وثيقة المدينة» التي أعلنها رسول الله ﷺ كرئيس دولة ومؤسس أمة، لاستخرج من موادها كل ما أقرَّه أصحاب النظرية فيما يتفق مع ما يريده الإسلام من خلال هذا العقد بما يفوق هذه النظرية الحديثة والتي توجه إليها بعض النقد في كثير من الأمور التي دعت إليها.

والسنة النبوية المطهرة توسعت في كثير من قضايا العدالة الاجتماعية والحرية، وغير ذلك من الأمور التي ركَّز عليها أصحاب نظرية العقد الاجتماعي. ولقد حرص الخليفة الراشد الأول «أبو بكر الصديق» على أن يضع عقدًا اجتماعيًا بينه وبين الرعية في الدولة بعد أن تمت مبايعته من قِبَل «أهل الحل والعقد» من الصحابة وعامة الناس، عقد يلتزم به الحاكم والأمة، ويؤسس للمسلمين دولة تقوم على أسس العدل والمساواة والحرية والشورى وفق ما جاء

في الكتاب والسنة يرتكز هذا العقد على قاعدة قانونية شرعية بطاعة الحاكم ما دام ملتزمًا بالشرعية وتتوقف الطاعة في حال خروجه عن مبادئ الشريعة.

وأعلنها رضي الله عنه سلطة متوازنة شورية لا تكون فيها السلطة مطلقة تتحول مع الزمن إلى دكتاتورية، وحرية فردية لا تتحول إلى فوض ينفرط فيها عقد الدولة وتسقط هيبتها.

وفي أول خطبة للحاكم الراشد أبي بكر: «إني قد وُليتُ عليكم ولستُ بخيركم فإن أحسنتُ فأعينوني، وإن أسأت فقوموني، الصدقُ أمانة، والكذب خيانة والقوي فيكم ضعيف عندي حتى آخذ الحق منه، والضعيفُ فيكم قوي عندي حتى آخذ الحق له، أطيعوني ما أطعتُ الله، فإن عصيتُهُ فلا طاعة لي عليكم... لقد حَمل هذا العقد الاجتماعي إن صَحَّ إطلاقنا هذه اللفظة عليه ركائز الدولة ومواد العقد الذي تمَّ بين الحاكم والمحكومين، ونستطيع أن نجمل بإيجاز ما تضمنه هذا العقد بما يتفق مع هذه المقدمة.

- فالأمة مصدر السلطات، وتملك سلطة المحاسبة والعزل: «إن أحسنتُ فأعينوني وإن أسأتُ فقوموني» وهذا أعلى أشكال الديمقراطية.
- القرآن والسنة مصدرا التشريع «أطيعوني ما أطعتُ الله ورسوله، فإذا عصيتُ الله ورسوله فلا طاعة لي عليكم».
- المصداقية بين الحاكم وشعبه: «فالصدق أمانة والكذب خيانة» وهو المعروف عندنا اليوم بالشفافية بين الحاكم والمحكوم.
- نص العقد على التعامل بين أفراد الأمة بمبدأ المساواة، ويحمل عناصر إنصاف الضعيف من القوي، وإيقاف القوي من أن يستولي على حقوق الضعفاء وهذه أمانة في رقبة الحاكم وجزء أساسي من العقد.
- كما نص العقد على أنه لا عصمة ولا قداسة للحاكم، وأن الدفاع عن الوطن من أوجب الواجبات، وعلى وجوب إقامة الحدود ومحاربة المفسدين في الأرض، وبث روح الألفة والمودة بين أبناء الشعب دون تفرقة أو محاباة.

- ويستطيع القارئ لنص أول خطبة للخليفة الراشد أن يستخرج الكثير مما هو كامن في صلب الخطبة، مما يجعلها عقدًا اجتماعيًا متكاملًا يوضح أهم الأبعاد السياسية ويضع البنود التي تجعل العقد حاميًا للوطن ذابًا عن أرضه وحياضه وأن الشريعة ألزمت طرفيّ العقد بأداء كل طرف المهمة التي أنيطت به رافضة الاستبداد إذا ما حدث نزاع لأن السلطة في الإسلام ليست تعسفية ولا جبارة، فهي وإن كانت قوية في الحق فإنها تنطوي على معاني الرحمة والتعاطف والتسامح. رغم تأكيدها وحرصها على تطبيق مبدأ الحريات، حيث أكدت حق الاشتراك في السلطة، وحرية التعبير، وحرية المعتقد، وحرية التجمع وغير ذلك من الحريات.

ولا نريد بعد هذا الإيجاز أن نزيد على ذلك، فهذا الموضوع له مصادره ومظانه التي يمكن أن يتوسع في دراسته ومعرفته من يريد الاستزادة فالخلاصة هو أن تجاهل دراسة «العقد الاجتماعي» في شريعة الإسلام يُعَدُّ من الحيْف، فهي دائمًا سبّاقة في وضع كل ما يصلح الحياة والبشر ولكن أكثر الناس لا يعلمون.

## وقفة موجزة مع شيخ المترجمين: عادل عمر زعيتر

ولابدَّ لنا من وقفة موجزة نعرف فيها بجزء من حياة شيخ المترجمين لتدرك- من خلال سيرته - أنك أمام عملاق من أفذاذ أمتنا وأعلامها الكبار في مجال النقل والترجمة والنقد.

فقد ولد «عادل بن عمر بن حسن زعيتر» سنة **1897**م في مدينة نابلس بفلسطين في بيت علم، ودين، وسياسة وقانون.

فقد كان أبوه «عمر حسن زعيتر» قاضيًا في محكمة الحقوق، ثم شغل منصبَ رئيس بلدية «نابلس» قبل وفاته سنة **1924**م.

أما شقيقه الأصغر فهو المؤرخ والسياسي والأديب المعروف «أكرم زعيتر» الذي شغل مناصبَ دبلوماسية وسياسية رفيعة، حيث عمل - سفيرًا للأردن في كثير من عواصم العالم الإسلامي والدول العربية، ووزيرًا للبلاط الملكي، ورئيسًا للجنةِ الملكية لشئون القدس، وله عدة كتب عن القضية الفلسطينية. في ظلِّ هذا البيت نشأ مترجمنا «عادل زعيتر» محاطًا بكل أنواع الرعاية العلمية والأدبية منذ نعومة أظفاره.

أتمَّ دراسته الابتدائية في «نابلس» ثم انتقل إلى المدرسة الإعدادية في «بيروت»، وفي «الأستانة» تلقى تعليمه العالي بالكلية السلطانية.

وفي كل هذه المراحل أتقن اللغة العربية وأجادَ التعاملَ معها، وأشادَ بأصالتها ورقيها واتساع علومها وآدابها، ونسب الفضل في إتقانه لها لوالده الذي كان يسمعه القرآن ويوضح له معاني آياته وكلماته، وإلى شيخه العلامة «مصطفى الغلاييني» اللغوي المعروف. كما أتقن اللغة التركية في الأستانة إضافة إلى إجادته المطلقة للغة الفرنسية التي أحبها ونبغ فيها وتفاعل معها، وكذلك كان تفوقه في إتقان اللغة الألمانية واللغة الإنجليزية.

عملَ فترة بالمحاماة، ثم بالتدريس، وبعد فترة ليست بالطويلة وهبَ العلامة«عادل زعيتر» حياته كلها لخدمة أمته، فعزفَ عن بهارج الدنيا وزخارفها، وطلَّق وظائفَهُ ومناصبهُ، واغتنم أيامه ولياليه في البذل والعطاء.

ويكفيه افتخارًا أنه أجزل لهذه الأمَّة- وبصورة فردية مبهرة - ما عجزت عن أدائه مجامع علم وهيئات ثقافة وإعلام ومؤسسات بحثية.

فقدم للمكتبة العربية على امتداد أربعين سنة - سبعة وثلاثين كتابًا، قام بترجمتها من الفرنسية إلى العربية معلنًا أن دنيا الفكر أعمرُ الدُنا جميعًا، وأن رسالة الثقافة والتنوير أخلد الرسالات طُرّا، وأن مباحث العلم أقدس المباحث بغير استثناء، لأن الفكرَ باقٍ، ولأن الحياة كانت في بدئها كلمة، وستكون في نهايتها كلمة، ولولا الكلمة لجَهلَ الناس حقيقة أنفسهم ولعزَّ عليهم أن يدركوا شيئًا من ألغاز الكون.

فلا غَرْوَ أن يسخر «عادل زعيتر» عمره كله في سبيل الكلمة المثقفة التي تمكث في الأرض وتنفع الناس.

وعندما بدأ العمل في مجال الترجمة لم يختر الروايات الرخيصة أو الماجنة سريعة الرواج والتي تدر الثروات الباهظة حتى وإن حطمت أخلاقَ الأمة، وساعدت على اضمحلال أو ذهاب قيمها وآدابها!

إنما اختارَ الطريقَ الوعر، وعكف على شوامخ الكتب ينقلها ويترجمها للغة الضاد الشريفة موقنًا بعظمة قول ربه: ﴿فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ (الرعد:17).

## مترجماته:

عكف شيخ المترجمين «عادل زعيتر» على كتب الكبار من رجال الحضارة أو من الذين أسهموا - بالعلم - في نضجها ورقيها من رجال الفكر الغربي فترجم للعالم الكبير «غوستاف لوبون» هذه الكتب.

1 - حضارة العرب.
2 - حضارة الهند.
3 - الآراء والمعتقدات.
4 - حياة الحقائق.
5 - روح الجماعات.
6 - روح الثورات.
7 - روح التربية.
8 - روح السياسة.
9 - روح الاشتراكية.
10 - اليهود في تاريخ الحضارات.
11 - السنن النفسية لتطور الأمم.
12 - فلسفة التاريخ.

• وترجم لـ«إيميل لودفيغ»:

1 - النيل حياة نهر.
2 - البحر المتوسط.
3 - ابن الإنسان.
4 - كليوباترا.
5 - نابليون.
6 - بسمارك.
7 - الحياة والحب.

• وترجم لـ «البارون كارادوفو»:

1 - ابن سينا. 2 - الغزالي. 3 - مفكرو الإسلام.

• وترجم لـ «جان جاك روسو»:

1 - العقد الاجتماعي، وهو الكتاب الذي بين يديك.

2 - أصل التفاوت بين الناس. 3 - أصل التربية.

• وترجم لـ«فولتير»:

1 - الرسائل الفلسفية. 2 - التفاؤل.

• كما أنه ترجمَ الكتب التالية لهؤلاء الأعلام:

1 - ابن رشد والرشدية لـ«إرنست رينان».

2 - ابن خلدون وفلسفته الاجتماعية لـ«غاستون بول».

3 - تاريخ العرب العام لـ«سيديو».

4 - حياة محمد «ص» لـ«إميل درمنغم».

5 - مجالي الإسلام لـ«حيدر بامَّات» وهو عالم مسلم.

6 - تلماك لـ«فرانسوا فلنون».

7 - روح الشرائع لـ«مونتيكسو».

8 - حديقة أبيقور لـ«أناتول فرانس».

9 - الآلهة العطاش لـ«أناتول فرانس».

10 - أصول الفقه الدستوري لـ«إيسمين».

• وكان شيخ المترجمين «عادل زعيتر» يخطط لترجمة عدد من الكتب منها:

1 - تاريخ الأندلس لـ«بروفنسال». 2 - تدهور الغرب لـ«شبينجلر».

3 - آخر ملوك بني سراج لـ«شاتو بريان».

4 - سيرة الأبطال لـ«بلوتارك».

## كتاب عدل عن ترجمته:

أما الكتب التي عدل عن ترجمتها بعد أن قضى شوطًا في العمل فيها فمنها كتاب «هوذا الإنسان» لـ«ينتشه» وقد ذكر «شيخ المترجمين عادل زعيتر» سبب عدوله عن ترجمة هذا الكتاب في رسالة أرسل بها إلى شقيقه الوزير «أكرم زعيتر» قائلًا في رسالته:

«أخذتُ في ترجمة «هوذا الإنسان» لـ«نيتشه»، وبعد أن قطعتُ شوطًا بعيدًا في أسبوع، أصبْتُ بالمرض، «الروماتزم» فأقعدني عن العمل، وطرحني في الفراش، ثمَّ شفيتُ منه منذ يومين، فرأيتُ ألا أستأنفَ العمَلَ في ذاتِ الكتاب لإفراط المؤلف في «اللادينية» وتهجمه على الأنبياء، وحملته الشديدة على المبادئ الإنسانية، أي لأمور لا أقرُّ «نيتشه» عليها في قليل أو كثير.

وهذا إن دل على شيء فإنما يدل على قوة إيمان ذلك الرجل وتدينه واعتزازه بالقيم والمبادئ التي عُرفَ بها شيخ المترجمين.

## إنصافه والإشادة بأعماله:

شهد عدد منَ الأعلام بدقة الترجمات التي قام بها العلامة «عادل زعيتر» وأقروا له بالريادة في هذا المجال.

فقد وصفته الدكتورة «عائشة عبد الرحمن» «بنت الشاطئ» بقولها:

«أعاد عادل زعيتر إلى الترجمة اعتبارها، بعد أن هبطَ بها المرتزقة والمأجورون، وصنائع الاستعمار الفكري، وأنه هو الذي وقف في غمرة الظلمة الداجية يحملُ المشعلَ بيده الكريمة ليضئَ لقومه العرب طريق الحق والخير والعزة، وما كانَ مشعله المضيء سوى قلم قويٍّ، نبيلٍ أصيل، يستمدُّ قوتَهُ ونبله من عقل ناجحٍ، وذكاء ساطع، وضمير حيٍّ».

ويقول عنه الناقد الكبير «حسين محمد بافقيه»:

«يُعَدُّ عادل زعيتر علامةً مهمةً في حركةِ الترجمة إلى اللغةِ العربية في العصر

الحديث، بما امتلكه من صبرٍ على ترجمة عدد من الكتب التي ينوءُ بترجمتها العصبةُ من أولي العزم».

ويعبر الأستاذ «محمد علي الطاهر» وهو صديق زعيتر عما رآه من صديقه واصفًا:

«إن عادل حينَ تبتَّلَ للعلم كان قد عزفَ عن مباهج الدنيا وعن السياسة منذ رأى الدجاجلة يظهرون، وأهل الغوغائية يبرزون، وأهل الحِمَى يُهْمِلون، فتقزَّزَتْ نفسُهُ من سوءِ ما رأى، ونأى بخُلُقِهِ الكريم عمَّا يتهافَتُ عليه أبناءُ جيله، فنذرَ نفسَهُ للقيامِ بتنوير العقول والارتفاعِ بالأفهام، فكانَ بهذه المثابة سراجًا لأمَّته ومنارًا لقومِه، وسوفَ يعجزُ كل منْ يأتي بعدَه، وسيُحَيِّرُ الذينَ يتصدونَ بعده للترجمة ونقل علوم الغير من لغةٍ إلى لغةٍ».

ويصرح الدكتور «وديع فلسطين» أستاذ علم الصحافة في الجامعة الأمريكية، بالقاهرة، وأحدُ العاملينَ في مجال الترجمة قائلًا:

«إذا كنتُ كقارئ عاديٍّ أحمِلُ لـ«عادل زعيتر» أسمى آياتِ الإعظام على فضلهِ العلمي السَّخيِّ، فإنني كمترجم - عانى مشاق النقل والتعريب - أرفعُ عادل زعيتر لمراتبَ قلَّ أن يبلغها غيرُهُ من عُتَاةِ المترجمينَ في أيِّ لغةٍ، سواء من حيث ضخامةِ العمل الذي أنجزهُ ولم يهمله القدر لإتمامه، أو من حيث الجودةَ في الاختيار والإبداع في الترجمة، والإتقان في إخراج كتبه مشكولة مضبوطةً محققة العلام والمواقع، بحيث تستعصي على الناقد ولو كانَ أزرقَ الناب طويلَ الباع».

نعم إن «عادل زعيتر» - شيخ المترجمين في العصر الحديث - ليمثل هو وأعلام التراجمة المحدثين الدور البارز في قيام نهضة عربية إسلامية جديدة تعيد إلينا عظمة ما قام به تراجمة العصر العباسي والحقبة الأندلسية التي كان لها الفضل في قيام الحضارة الأوروبية المعاصرة ونحن نكتفي بهذه الشهادات المختارة لهذا العلم الراقي في سماء الترجمة.

## وفاته:

بعدَ هذه الرحلة الشائقة من العطاء ومن خدمة الأمة الإسلامية والعربية سقط القلم من يد شيخ المحققين المترجمين وهو يحمله في يده مجاهدًا في سبيل الكلمة الراقية.

سقط القلم وصاحبه منكب علىَ ترجمة كتاب «مفكرو الإسلام» للمؤلف الفرنسي «كارادفوا» وذلك نتيجة أزمة قلبية أصابته، وكأنها تقول له: كفاكَ ما قمتَ به أيها المجاهدُ العملاق، فقد آمنت بربك عن يقين، وحفظت الكثير من آيات كتابه الكريم، وعشقت لغة الضاد الشريفة وخدمتها بقلمكَ الرصين، فلتذهبْ نفسكَ وروحُكَ الطاهرة إلى ربها راضية مرضية بعدما أدت ما عليها في هذه الحياة القصيرة فلبت نداء ربها وكان ذلك في الحادي والعشرين من نوفمبر سنة 1957م ليرقد الجسد الطاهر في مدينته المعشوقة «نابلس» فرحمة ونورًا لروحه الطاهرة.

## حديثه عن روسو:

كفانا العلامة الكبير عادل زعيتر مؤنة الحديث عن مؤلف كتاب «العقد الاجتماعي» «جان جاك روسو»، في مقدمة الترجمة فأفاضَ وأفادَ.

## ترجمات العقد:

فلم يبق لي سوى الحديث عن ترجمات «العقد الاجتماعي» التي توفرت أمامي، وذلك بصورة موجزة.

فقد قام عدد من المترجمين بتعريب «العقد الاجتماعي» لـ«روسو» عن الأصل الفرنسي، فمنهم من جمع مؤلفات «لوك» و«هيوم» و«روسو» محاولًا إبراز ما قيل عن «العقد ونظريته» لدى هؤلاء الثلاثة، وهذا ما صنعَهُ عبد الكريم أحمد في ترجمته التي راجعها توفيق إسكندر وصدرت في سلسلة الألف كتاب.

وهناك من أفردَ ترجمة «العقد الاجتماعي» لـ«روسو» مثل «ذوقان قرقوط» وهي الترجمة التي قامت على نشرها دار القلم.

## ترجمة زعيتر ولماذا اخترناها؟

وكذلك فعل شيخ المترجمين عادل زعيتر حين وقف على ترجمة «العقد الاجتماعي» لـ«روسو» متفوقًا - كعادته- على النشرتين السابقتين مما دفعنا إلى اختيار ترجمته لعدة أسباب:

- أولًا: لتمكنه من الصياغة اللغوية الأنيقة والراقية والرفيعة.
- ثانيًا: لإشادة «اللجنة الدولية لترجمة الروائع الإنسانية» باليونسكو بها، واختيارها ضمن مشاريعها الحضارية، ولعلمها بأن المترجم عالم خبير باللغتين العربية والفرنسية للدرجة التي أهلته لأن يكون عضوًا بمجمعي اللغة العربية ببغداد ودمشق، ولكونه من المترجمين الكبار الذين أخرجوا الروائع الإنسانية في الدراسات الفرنسية والغربية. ومعلوم أن من الشروط الواجب توافرها في المترجم لأي لغة أن يكون عالمًا باللغتين المترجم منها والمترجم إليها من جميع فروعهما، وهو الأمر الذي توفر في العلامة عادل زعيتر.

## وصف الكتاب ليورحلان:

يحدثنا «بيير يورحلان» أحد الذين قدَّموا لبعض طبعات «العقد الاجتماعي».. لـ «جان جاك روسو» النسخ التي اعتمد عليها، ويتكلم عن الطريقة التي قوبل بها كتاب «روسو» في بداية الأمر، ثم عن الحفاوة التي نالها «روسو» وكتابه بعد وفاته، فيفسر الكلام قائلًا:

نمتلك نصين للعقد الاجتماعي. الأول، في نسخة لم تنشر إلا في نهاية القرن التاسع عشر، يبدو أنه كان قد وضع في حوالي عام 1758. إلا أنهما لا يتضمنان فوارق مذهبية هامة. فقد أعاد روسو النظر بالجزأين الأوَّلين ليجعل تنسيقهما أكثر ترابطًا. كان النص الأول يبدأ بمجتمع الجنس البشري العام «الفصل الثاني» الذي كان يربط بين المقالة والعقد الاجتماعي. وحل محل هذا الفصل

بعد حذفه في النص النهائي هجوم على المذاهب المعادية. وأخرت مسألة سلطة الدولة للكتاب الثاني. وأعاد روسو النظر في فصل الدين المدني الذي جاء هجوميًا أكثر مما ينبغي في النص الأول. وأتم الكتاب الثالث الذي كان ما يزال في خطوطه العريضة بعد أن أدخل عليه فصلًا رابعًا في الشرطة» الرومانية وفاءً لغراماته الأولى ليظهر كيف يسير «مجلس من مئتي ألف إنسان».

كان انتشار الكتاب بطيئًا إذ مُنع في فرنسا وحكم عليه في جنيف. كان القرار فيه قاسيًا. إلا أن اقتراب الثورة روّج قراءته: ولقد سار الكلام فيه كثيرًا وألهم أحيانًا، نذكر روبسبير وسان جوسف على سبيل المثال. أما بالنسبة لمن كانوا على صلة مباشرة بالعمل السياسي العاجل فقد كان يظل بعيدًا بعض الشيء عن الوقائع. ويجب أن نشير على الأخص إلى الإجلال الذي قوبل به جان جاك روسو بعد موته. فقد حُوّل مؤلف العقد الاجتماعي إلى أسطورة وإلى رمز مثير للحماس لإعادة البناء السياسي. وكانت إقامة تمثال نصفي له في باريس ونقل جثمانه إلى البانتيون ومرسوم 7 مايو «أيار» 1794 الذي أرسى معتقدات دين نائب سافوا **Vicaire Savoyard** ذروة ذلك التمجيد.. وإذ ارتبط بالثورة على هذا النحو فقد شاركت آثاره في المحاكمات وفي العواصف المتضاربة التي أثارها ذلك المنعطف من تايخنا. فحتى عام 1830 بقي روسو معاصرًا وظل يوقظ الأهواء حتى فجر تاريخنا.. وكان كانت وفيخت وهيجيل يجعلون منه والحالة هذه، أحد رجال الفلسفة الكلاسيكيين(1).

## عملي في الكتاب:

لقد انصبَّ عملي على دراسة موضوع «العقد الاجتماعي» من خلال التعريف بمعناه، وتوضيح المراد منه، والاختلافات التي دارت حول النظرية بين كل من «هوبز» و«لوك» و«روسو» وبيان وجه الاتفاق بينهم، كما عرجت على أن الإسلام سبق نظرية «العقد الاجتماعي» بعشرات بل بمئات السنين، وأنه وضعَ أصول

(1) مقال يورحيان عن العقد الاجتماعي ترجمة فرقوط ص24.

العلاقة بين الحاكم والمحكوم وبين مسئولية كل منهما وحدود كلا الطرفين في كل ما يتعلق بالحرية، والمساواة، والعدالة الاجتماعية، كل ذلك على سبيل الإيجاز.

- ترجمتُ للعلامة «عادل زعيتر» وعرَّفتُ بهِ ليطمئن القارئ إلى أن الكتابَ الموضوعَ بين يديه قام على خدمته مترجم فاقه أستاذ حاذق وعالم له باع في مجال الترجمة.
- علقتُ على بعض أجزاء الكتاب بمعاونة بعض الأساتذة الفضلاء الذين كان لهم فضل في التوجيه والإرشاد.

سائلًا الله أن يعيد لهذه الأمة قيمها وأخلاقها واغترافها من شريعتها ما تصله به شأن دنياها، فهو ولي ذلك وهو وحده القادر عليه.

أبو عاصم

**عادل عبد المنعم أبو العباس**

بني مجدول – القاهرة

UNESCO

اللجنة الدولية لترجمة الروائع الإنسانية
«الأونسكو»

جان جاك روسو

# العقد الاجتماعي

## أو مبادئ الحقوق السياسية

ترجمة عادل زُعيتر

# مقدمة المترجم

أقدِّم ترجمة «العقد الاجتماعيِّ أو مبادئ الحقوق السياسية» لجان جاك رُوسُّو.

في اليوم الثامن والعشرين من يُونيه[1] سنة **1712** وُلِد جان جاك رُوسُّو في جينيف.

وكان أبوه إسحاقُ ساعِيًّا[2]، وكانت أمه سوزان بِرنارد ابنةَ قسيس، وكان جدُّه الأعلى دِيدْيه رُوسُّو قد هاجر مِن باريس إلى جينيف في سنة **1550**، أي أيام الحروب الدينية، وقد استقرت أُسرته، التي هي من أصلٍ فرنسيّ خالص، بهذه المدينة منذ ذلك الحين.

ولم يعرف روسو أمَّه سوزان برنارد، فقد ماتت بُعَيْد وِلادته، ولم يكن ليجاوِز اليومَ الثامن من عُمُره حينما فَقَدها، فقام أبوه بشئون تربيته في البُداءة، ولكن من غير أن يُعْنَى بأمر تهذيبه كما يجب، ومع ذلك فقد تعَلَّم القراءة ابنًا للسادسة، وطالع مع أبيه كتبًا كثيرة قبل بلوغه العاشرةَ من سِنيه.

وكان أبوه إسحق نَزِقًا عاطفيًّا ذا أثَرَة، ومما حَدَث في سنة **1722** أن تشاجر هو وضابطٌ في جنيف قريبٌ للقاضي الذي يحكُم في الدعوى، ففرَّ من جنيف خشيةَ القسوة عليه، وأقام بقرية نِيُون البعيدة حيث تزوج واستقرَّ حتى آخرِ حياته، وقد نَدَرَ اجتماعُه بابنه بعد ذلك.

ويقوم بشأن تربيته بعد فرار أبيه خالُه برنارْدُ الذي كان مهندسًا في مدينة جنيف، ويرسله خالُه هذا إلى كاهن بواسِّي، لانْبِرْسيه، ليتعهدَ أمورَه، فقضى عنده عامين، ويُكْسَر مُشْط لأخت معلِّمه، ويعاقبه معلِّمُه هذا على فعلٍ لم يقترفه،

(1) حزيران.

(2) Horloger أي أنه كان يعمل في مهنة بيع وإصلاح الساعات..

فيألم كثيرًا، ويعود إلى منزل خاله سنة **1724**، وتُحْسِن زوجُ خاله معاملتَه، وتَعْطف عليه.

ويَبْلُغ الثالثةَ عشرةَ من سِنيه، ويَجْعَلهُ خالُه تلميذًا لدى مُوَثِّق على الرغم منه، ويزدريه معلمه لعدم نجاحه، ويُعيدُه إلى خاله، فيرسله إلى نحَّات في سنة **1725**، ويُحبُّ فَنَّ النحت، ولكن النَّحَّات يَقْسُو عليه، ويُكْثِر ضربَه ويجعله بائسًا مَكَّارًا خبيثًا، وفي سنة **1728**، حين كان في السادسَ عشرَ من عمره، ذهب مع أصدقاء له للنزهة خارجَ جينيف، ولما عاد مساءً وجَدَ أبوابَ هذه المدينة مُقْفَلَةً، فتَمثَّلت له غِلْظةُ أستاذه ولم يَرْجِعْ إليه، وصار يَطُوف حَوْلَ جينفَ أيامًا ويعيش مع الأشرار فانحطَّ.

ويَقْصِد رُوسُّو دَيْرَ كُونْفنيُون بمديرية سافوا الإيطالية، ويُلقِّنه كاهنُ هذا الدير، بُونْفِيرُ، مبادئ الكثلكة، ويُبْعده من البرُوتستانتية التي كان يدين بها، ويُرْسله إلى مدام دُوفَارِنْز بمدينة أَنْسِي، وكانت هذه السيدة بالغة الجمال فحاولت أن تجعله كاثوليكيًا مقبولاً في مدرسة كاتشُومن بتورين حيث ارتدَّ عن البرُوتستانتية.

وَجَد رُوسو رجالَ دير تُورين فاسدي السيرة، ووَدَّ لو يَنْجُو منه، فساعده على الخَلَاص كاهنٌ عَطُوفٌ قام بزيارةٍ عابرةٍ لذلك الدير، وهكذا هَرَبَ رُوسُّو منه ليعود إلى سابق فقره.

ظَلَّ رُوسُّو عاطلًا من العمل جائلًا في الطُّرُق حتى نَفِدَ جميعُ ما عنده من نَقْد، وكاد يموت جوعًا فرَجع إلى ذلك الكاهن المحسن فأشركه في معيشته موصيًا إياه بالصبر واحتمال الألم، ومن هذا الكاهن اقتبس الإخلاصَ وحبَّ الإنسانية ومَقْتَ النفاق.

ويبحث رُوسُّو عن عملٍ يعيش منه، ويُسْتَخْدَم في حانوت حسناءَ إيطالية، ويَطْرُدُهُ زوجُها عن غَيْرَة، ويَعْمَل عند أرملة غنية، وتموت هذه السيدة، ثم يصير خادمَ مائدةٍ في بيت إحدى الأُسَرَ النبيلة، ثم يزوره صديقٌ من جِنيف فيرافقه ويترك الخِدمْة مفضلًا الحرية على الاستقرار.

ويُفْرِغ كيسَه، ويَقْصِد ثانيةً مَنْزِل مدام دُوفارِنْز بمدينة أنسى سنة **1729** ابنًا للثامنةَ عشرةَ، فيُرَحَّب به، ويَقْضِي في هذه المدينة حياةَ سعادة، يقضيها في القراءة والدِّراسة، وتُرْسِله مدام دُوفارِنْز إلى إحدى المدارس لإتقان اللاتينية فيقرر أساتذته عدمَ صلاحه لهذا، ويسافر إلى ليون بعد شتاءٍ يقضيه في منزل تلك السيدة، ويَلْقَى حياةً قاسية في ليون، ويعود إلى ذلك المنزل فيجد مدام دُوفارِنْز مسافرةً، ويسأل فلا يَعْرِف أين تقيم، ولا متى تعود.

ومن المصادفات أن لاقى في أَنسى خادمةً جاءت للبحث عن مدام دُوفَارِنْز فلم تَعْلَم أين هي أيضًا، ويسافر مع هذه الخادمة إلى قرية فريبُرغ حيث يقيم أبوها، ويَمُرُّ في طريقه على أبيه في قرية نِيُون، ويتعانقان، ولا تُحْسِن زوج أبيه قبوله، فيداوم على سفره إلى قرية فريبُرغ، ولا يُحسِن أبو الخادمة استقباله، فيتوجه إلى مدينة لُوزان مُعسِرًا كثيرًا.

وفي لُوزان يَزْعم أنه أهلٌ لتعليم الموسيقا مُدَّعيًا أنه تَعلَّمها في باريس مع أنه لم يَرَها حتى ذلك الحين، وهو على ما كان من كَلَفه بالموسيقا كان جاهلًا لها، فيُمْنى بحبوطٍ ذَرِيع.

ويَغْلِب الغموض على تاريخ تلك المغامرات التي حَدَّث عنها في «اعترافاته»، ولكنها وقعت في ثلاث سنين كما يظهر، فلما حَلَّت سنة **1731** ذهب إلى مدينة بُودْرِي فوجد في أحد فنادقها قسِّيسًا يُحدِّث بلغة لا يَعرفها غيرُ رُوسُّو، فاتخذ رُوسُّو ترجمانًا له، وصار يَجُوب معه بلادًا كثيرة حتى انتهيا إلى سُولُور، فأَعْجب السفيرُ الفرنسيُّ فيها برُوسُّو وجعله موضعَ رعايته، ويرسله إلى باريسَ مع ضابط صغير، ويعتريه سأمٌ من باريسَ ومظاهرها، ويَعْلَم نبأ عودة مدام دوفارِنْز إلى أنسى ويَرْجع إليها.

بَلَغَ ليونَ خاويَ الوفَاض، فأخذ يَنْسَخ قطعًا من الموسيقا، وظَلّ يصنع هذا أيامًا حتى تَلَقَّى كتابًا من مدام دُوفَارِنْز تدعوه فيه إلى مدينة شانْبِري، فلَبَّى الدعوة غيرَ آسف على ليون لبُعْدها من الحياة الريفية، وقد بَقِيَ محلَّ رعاية مدام دُوفارِنْز، وقَضَى حياةَ هدوءٍ عندها سنينَ كثيرةً سواءٌ أفي شانْبِري أم في

شارْمِت، وفي هاتين المدينتين أمعن رُوسُّو في دراسة شَتَّى العلوم فكان لذلك أبلغُ الأثر في كتابة رسائله وكتبه القادمة.

وفي سنة 1738 يُصَاب رُوسُّو بمرض شديد، ويُرْسَل إلى كلية مونبليه للمعالجة، ولم تُحْسن مدام دُوفارِنز استقباله بعد شفائه لاشتغال قلبها بغرام حبيبٍ آخر، وما بذله رُوسُّو من جهودٍ كثيرة لإقصاء هذا المنافس كان على غير جَدْوَى.

وفي سنة 1740 سافر إلى ليون حيث مَكث عامًا، وحيث اتُّخذَ مربيًا لأبناء حاكم ليون الأكبر دُومابْلِي، ثم عاد إلى شارْمِت عن شَوْقٍ إلى مدام دوفارِنْز، فكان قبولها له حسنًا على غير ما ينتظر، ولكن مع بقاء الحبيب المنافس محتلًا للمكان الأول من فؤادها، فعزم على السفر إلى باريس.

ذهب إلى باريس سنة 1741 بالغًا التاسعة والعشرين من سنيه، ونَزَل بفُنْدق سان كِنْتَان الوضيع، وقد كان ذا مزاعم في الموسيقا، وقد جَدَّ في كسب عيشه من هذا الفن، فعرضَ في سنة 1742 على مجمع العلوم مناهجه فيها فلم يَجِدْه هذا المجمع جديدًا ولا نافعًا، فرَدَّه، غير أن النجاح إذا لم يكن حليفه في هذا الحقل كانت له تعزيةٌ بما اتَّفَق له من اتصالٍ برجال العلم والأدب والفلسفة في باريس وانتفاعِه بمعارفهم.

وفي ذلك الفُندق وقع نظر رُوسُّو على فتاة ريفية اسمُها تريز لُوفاسُّور بالغة من العمر اثنتين وعشرين سنة، وكانت هذه الفتاةُ تَعْمَل خادمةً فيه، وكانت من أهل أورليان، وقد رَقَّ روسُّو لها لِمَا رأى من هُزوء الناس بها لبساطتها وبَلهها، فاتخذها رفيقةً له عن حُبٍّ وعاطفة، وغادرا الفندق، وقد دامت حياتُهما معًا ستًا وعشرين سنة.

والحقُّ أن تريزَ كانت على جانب عظيم من الغباوة، وكانت لا تُحْسن شيئًا من القراءة والكتابة، وكانت كثيرةَ الشغب والنزاع، ومع ذلك كان رُوسُّو كثيرَ الإعجاب بها ناظرًا إليها بعين الحبِّ راضيًا بجمالها وحُسْنِ صوتها، متجاوزًا عن عيوبها وفقرها مُغْضيًا عما يَفْصِله عنها من عبقريةٍ ونبوغ، وقد دامت حاله هذه نحوها اثنتي عشرةَ سنة.

وتغيَّر حُبُّ تريزَ له مع الزمن، وصارت لا تبالي به ولا تفكر فيه، وطلبت منه الفراقَ قبل موته بتسع سنين، فقد وَلَدَت له خمسةَ أولاد، وسَلَّمهم إلى ملجأ اللُّقَطَاء على مضَضٍ من الأمّ، وذلك من غير أن يَتْرُك ما يَدُلُّ على أصلهم في المستقبل، ويعتذر عن ذلك بفقره واضطراره إلى كسب عيشه بكَدِّه، وإن كان يَهْدِف في الحقيقة إلى الحياة الحرة الطليقة التي لا تَشْغَل بالَه بوَلَد، وفي ذلك من الابتعاد عن الإنسانية والمرُوءة وحسِّ الواجب ما لا يخفى، وقد أراد رُوسُّو أن يُكَفِّر عن خطيئته هذه التي لا تُغْتَفَر بوضعه كتاب «إميل» العظيمَ الشأن فيما بعد، ومع ذلك فقد وُجِدَ مَنْ شَكَّ في صحة حكاية أطفاله الخمسة تلك ذاهبًا إلى أنها دُسَّتْ في «اعترافاته» التي نُشِرَت بعد موته.

وفي اعترافاته تلك يذكر رُوسُّو أنه صَرَّح رسميًّا بزواجه بتريز بعد معاشرته إياها رُبْع قرن، وقد صَرَفها بذلك عن طلبها الفراق، فظلت رفيقةً له إلى أن مات، وإن لازمها الغَمُّ والألم حزنًا على أطفالها أولئك.

قلنا إن رُوسُّو ذهب إلى باريس، وفي هذه المدينة قضى حياةً عسيرةً ككُتَّاب ذلك العصر، فقد كان يَتعيش من استنساخ القِطَع الموسيقية فيها مع قبوله في رِدَاهِ المجتمع الراقي، ثم ذهب إلى البندقية سكرتيرًا لسفير فرنسة دُو مُونْتِيغ.

ويعود رُوسُّو إلى باريس حيث أصبح مستخدمًا لدى الملتزم العامِّ دُوبان سنة **1748**، وفي ذلك الحين يُقَدَّم إلى مدام ديبيناي، ويرتبط بأواصر الصداقة في دِيدِرُو الذي كان من رجال الشعب أيضًا فيقضي حياةً شاقَّةً مثله في باريس.

وبينا كان ذلك حال روسُّو في سنة **1749**، حين كان ابنًا للسابعة والثلاثين، نَشرَتَ أكاديمية دِيجُون إعلانَ مسابقةٍ في موضوع: «هل أدى تقدم العلوم والفنون إلى إفساد الأخلاق أو إلى إصلاحها؟»، وكان صديقه دِيدِرُو في سجن فنْسن وقتئذ بسبب «رسالته عن العُمْي»، فاطلع على ذلك الإعلان حين ذهابه إلى زيارته، فعَنَّ له وهو في الطريق أن يشترك في المسابقة، ويُكَلِّمُ دِيدرُو في الأمر فيشيرُ عليه بالتزام جانبِ إفساد العلوم والفنون للأخلاق لِمَا في هذا من طرافةٍ وتوجيهِ نظرٍ، ولِمَا ينطوي التزامُ جانب إصلاحهما للأخلاق من ابتذال.

أعْمَل رُوسُّو ذهنه وجَمع قُواه، وكتب في الموضوع فأقام الدليل على أن العلوم والفنون أفسدت الأخلاق وأوجبت شقاء الإنسان وادَّعَى أن الترف والحضارة من نتائج العلوم والفنون، وأنهما عِلَّةُ فساد الأخلاق، فقال بالرجوع إلى الحال الطبيعية، ومما ذهب إليه في تلك الرسالة كونُ الثَّقافة أقربَ إلى الشَّرِّ منها إلى الخير وكَوْنُ التفكير مناقضًا لطبيعة الإنسان، وكَوْنُ الفضيلة والأمانة والصدق لا أثَرَ لها في غير الحال الطبيعية حيث لا علوم ولا فنون.

وكَتَبَ رُوسُّو رسالته تلك بقلم حارٍّ وعاطفة جارفة، فجاءت مبتكرةً في مجتمع بلغ الغاية من المدنية مخالفةً لِمَا عليه الجُمهور، فنال رُوسُّو بها الجائزة.

ويُعَدُّ رُوسُّو في رسالته تلك كالمحامي الذي يلتزم طرفًا واحدًا في المرافعات فيَصْعُب تصديقُ جِدِّيته في تمثيل دوره، ولذلك لا تتجلَّى أهمية رسالته تلك في اشتمالها على مذهب إيجابيٍّ، بل في كَوْنها مِفْتَاحًا لنشوء رُوسُّو الذهنيّ وفي كَوْنها مرحلةً مؤديةً إلى «العقد الاجتماعي»، فالواقعُ أن هذه الرسالة تحتوي أصلَ مذهب رُوسُّو وعقيدته، ومنها تُعْلَمُ عداوتُه للترف والمدنية ونظام الطبقات كما يُعْلَمُ منها دفاعُه عن الحرية.

وَيذيعُ صيتُ رُوسُّو بتلك الرسالة بعد خُمُولِ ذِكْر، ويُعْجَبُ بها كتَّابٌ ويحْمِل عليها آخرون، ويُجيبُ رُوسُّو عن النقد المُوجَّه إليه بأنه لم يُرِد الرجوع بالناس إلى الوراء، وإنما أراد العَوْدَ إلى الفضائل والابتعادَ عن الترف والرذائل وسيادة المساواة بين الأنام.

ويَرَى رُوسُّو بعد وَضْعِ تلك الرسالة أن يُوفِّق بين سلوكه وما عَرَضه فيها من مبادئ ويعيش مستقلًّا، فيترك مكانَه مستخدمًا ويجْعَل من نفسه نساخًا للموسيقا.

وفي سنة 1753 أعلنت أكاديمية دِيجُون مسابقةً أخرى عُنوانُها «ما أصل التفاوت بين الناس، وهل أجازه القانون الطبيعيّ؟»، ويشترك رُوسُّو في المسابقة لِمَا لاقى من نجاح في الأولى، ولكنه لم ينل الجائزة لشدة حَمْله على الاستبداد، وينشرها في سنة 1755 مُقَدَّمةً إلى جُمهورية جِنيف،

ويذهب إلى جنيف بعد إصدارها، ويعود إلى باريس منتحلًا البروتستانية حاملًا لقب مواطنٍ بجنيف.

وتدلُّ كلمة «الطبيعة» هنا على تطور كبير، فلا يعارض رُوسُّو بها شُرورَ المجتمع معارضةً فارغة، بل تنطوي على أمور إيجابية، فتَرَى نصف «أصل التفاوت» يشتمل على وصف خياليّ لحال الطبيعة التي يكون الإنسان فيها محصورًا ضمن أضيق مجال مع قليلِ احتياجٍ إلى أمثاله وقليلِ اكتراث لِمَا وراء احتياجات الساعة الحاضرة.

وفي هذه الرسالة يُصَرِّح رُوسُّو بأنه لايفترض وجودَ الحال الطبيعية فعلًا، وإنما يستحسن حالًا من الهمجية متوسطةً بين الحال الطبيعية والحال الاجتماعية يحافظ الناسُ بها على البساطة ومنافع الطبيعة، ويظهر من تعليقات رُوسُّو على مَتن الرسالة أنه لا يريد رجوعَ المجتمع الفاسد الحاضر إلى حال الطبيعة، وإنما يَعُدُّ المجتمع أمرًا لا مفرَّ منه مع فساده، وهو يُعَلِّل هذا الفسادَ بالتفاوت بين أفراد المجتمع في المعاملات والحقوق فيتغنى بالإنسان الطبيعيِّ الطاهر، ويقول بتلك الحال المتوسطة حيث تسود المساواة.

وقد وُجِدَ من يؤاخذ رُوسُّو على سلوكه مِنْهَاجَ التاريخ في «أصل التفاوت»، مع أنه لم يَحْرِصْ على إلباس هذه الرسالة ثوبًا تاريخيًّا، وانتحالُ المناحي التاريخية الزائفة من خصائص القرن السابع عشر والقرن الثامن عشر، ورُوسُّو لم يُبَالِ بهذه المناحي.

وفي سنة **1755** نَشَرَ رُوسُّو رسالةَ «الاقتصاد السياسيّ»، وهنالك شَكٌّ في كونها وُضعت قبلَ رسالة «أصل التفاوت» أو بعدها، فالذي يظهر أولَ وهلةٍ كونُ رسالة «الاقتصاد السياسيّ» على نَمَط «العقد الاجتماعيّ»، وهذا يدلُّ على أنها أُلفَت بعد «أصل التفاوت».

ومهما يكن من أمرٍ فإن رُوسُّو بدأ هذه الرسالة بمناقشةٍ حَوْل طبيعة الدولة وإمكان التوفيق بين وجودها وحريةِ الإنسان، فرأى أن الدولة هيئةٌ تَهْدِف إلى سعادة جميع أعضائها، وجَعَل جميعَ وجهات نظره في الجباية تابعًا لهذا الهدف،

وذهب إلى أن الكماليات وحدها هي ما يجب أن يكون تابعًا للضرائب وإلى وجوب فرضِ ضرائبَ فادحةٍ على أمور الترف، وإلى عدم وضع ضريبة على الحاجيات كالقمح والملح.

ولم تشتمل رسالة «الاقتصاد السياسي» على كثير من مباحث الاقتصاد المعروفة، بل تحتوي آراءَ رُوسُّو السياسية إجمالًا، وقد وضعها أيامَ عمَّت المجاعة فرنسا فكان الفقراء يموتون عن احتياج، على حين يتمتع الأغنياء بأطايب النِّعَم وضروبِ التَّرَف.

وقِسْمُ «الاقتصاد السياسيِّ» الأولُ هو أكثر ما يستوقف النظر، فهو يَهْدِمُ ما يُبَالَغُ فيه غالبًا من المقابلة بين الدولة والأسرة، فيَذْهَب إلى أن الدولة ليست ذاتَ طبيعة أبوية، وأنها تقوم على إرادة أعضائها العامة.

ومن مطالعة كتاب «الاقتصاد السياسيِّ» يُرَى أن رُوسُّو كاد يَبْلُغ به مَرْحَلة النُّضج في آرائه السياسية، فكان هذا مُبَشِّرًا بكتاب «العقد الاجتماعي» في نهاية الأمر.

ظهر «العَقْد الاجتماعيُّ» مع كتاب «إميل» سنة **1762**، فدلَّ بذلك على بلوغه الذروة من عمله، والواقع أن «العقد الاجتماعيّ» يشتمل عمليًّا على نظريته السياسية الإنشائية كلِّها، ويدلُّ عُنوانه على موضوعه، ويُسَمَّى هذا الكتاب «مبادئَ الحقوق السياسية» أيضًا، ويُوضِّح هذا العُنوانُ الثاني العُنوانَ الأول.

وَضَعَ رُوسُّو هذا الكتاب، وكان من الخطر البالغ أن يَجْهَرَ الإنسانُ بأيِّ رأيٍ حُرٍّ حينما وَضعه، وكان رُوسو جريئًا في كلِّ ما أبداه فيه، وفي هذا الكتاب حَمَلَ رُوسُّو على الرِّقِّ وعدم المساواة وناضل عن حقوق الإنسان وأقامها على طبيعة الأمور، وقال إن هَدَفَ كلِّ نظام اجتماعيّ وسياسيّ هو حفظُ حقوق كلِّ فرد، وإن الشعب وحدَه هو صاحب السيادة، وكان يَهْدِف إلى النظام الجُمهوريِّ، فتحقق هذا النظام بالثورة الفرنسية بعد ثلاثين سنة حين اتُّخذَ «العقد الاجتماعي» إنجيلَ هذه الثورة.

ولم يَقُلْ رُوسُّو بحكومات زمنه لمنافاتها للطبيعة، ويقوم مذهبه على كون

الإنسان صالحًا بطبيعته محبًّا للعدل والنظام، فأفسده المجتمع وجعله بائسًا، والمجتمعُ سيئٌ لأنه لا يساوي بين الناس والمنافع، والتملكُ جائرٌ لأنه مُقْتَطَعٌ من الملك الشائع الذي يجب أن يكون خاصًّا بالإنسانية وحدَها، فيجب أن يُقْضى على المجتمع إذَنْ، وأن يُرْجَع إلى الطبيعة، وهنالك يتفق الناس بعقد اجتماعيّ على إقامة مجتمع يَرْضَى به الجميع، فيُقيمون بذلك حكمةً تَمنَح الجميع ذات الحقوق فتقوم سيادةُ الشعب مقامَ سيادة الملِك، ويتساوى فيها الناسُ وتُنَظَّم الثروةُ والتربية والديانة.

وفي كتاب «إميل» ظهر رُوسُّو الفيلسوفُ المربِّي بجانب رُوسُّو الفيلسوف الاجتماعي، وقد حاول رُوسُّو أن يُكَفِّر بكتاب «إميل» عن خطيئته تجاه أولاده كما قلنا، ويُعَدُّ رُوسُّو بهذا الكتاب مؤسسَ التربية الحديثة، ففيه ألقى دروسًا مُمْتعة في تربية الأطفال ومذاهب التربية والفضيلة والحياة الزوجية، وقد نال كتاب «إميل» من بُعْد الصيت والأثر ما أصبح معه مُعوَّل علماء التربية، حتى إن الفيلسوف الألمانيَّ الكبير «كَنْتَ» تأثَّر به كثيرًا، وكَنْتُ حينما أخذ يطالعه أبى مغادرة منزله إلى نزهته اليومية قبل الفراغ من قراءته، وكَنْتُ مَنْ تَعلَمُ تَمسُّكه بنزهته تلك وعدمَ عدوله عنها إلَّا لأمرٍ جَلَل.

وقد ألَّف رُوسُّو قصة حياته الخاصة في «اعترافاته» فوضع الجزء الأول منها سنة **1766**، وقد ظهر رُوسُّو في هذا الكتاب مثالَ القاضي المؤرخ العادل النزيه، فلم يكتم شيئًا من خطيئاته ولم يَزِد في حسناته، ولم تُنْشَر هذه «الاعترافات» إلا بعد موته، وعليها يُعْتَمد في ترْجمة حياته.

قلنا إن رُوسُّو عاد من جنيف إلى باريس منتحلًا البروتستانية، وتعرض عليه صديقتُه مدام ديبيناي في سنة **1756** ملجأً في وادي مُونْمُورَنْسي بالإرْميتاج، فيقْبَله، وهنالك كتب رواية إلُوئيز عن حُبٍّ كان يَشْعُر به نحو بنت أخت مدام ديبيناي، مدام دُو دِيتُو، التي كانت ذات صلة بالشاعر لَنْبِر، وقد كان لهذا الغرام المحزن أثرٌ سيئٌ في نفس رُوسُّو، فقد أصبح قاتم الطبع، فقطع اتصاله بمدام ديبيناي، وغادر الإرميتاج ليأوِيَ إلى مُونْلويس بالقرب من مُونْمُورَنْسي، إلى

هذا المأوى الذي قَدَّمه إليه مريشال لُوكَسَنْبُرْغ، وإلى هذا الدَّوْر ترجع نظرياته الاجتماعية وأفكاره الإصلاحية التي أدرجها في «العقد الاجتماعي» و«إميل» وفي رسالته إلى دالنْبِر عن المسارح فباعدت هذه الرسالة بينه وبين فولتير وألقت بينهما بذورَ البغضاء، وفي «إميل» هاجم عقيدة الوحي منكرًا له مع قوله بوجود الإله، فحكمت عليه جنيفُ وباريسُ والبرلمان، فهاجر إلى مُونْته ترافير في حكومة نُوشَاتِل حيث قضى حياةً غريبة وتَزَيًّا بزِيِّ الأرمن، وحيث وضَع في سنة **1764** دفاعًا عن «إميل»، ويُحْمَل على مغادرة سويسرة، ويستقرُّ بإنكلترة، بفُوتُّون، عند الفيلسوف الإنكليزي هيوم، ويكتب القسم الأول من «اعترافاته»، ولكنه لم يَلْبَث أن تركَ هذا الفيلسوفَ الإنكليزيَّ متهمًا إياه بالائتمار به مع أعدائه.

ويعود رُوسُّو إلى باريسَ في سنة **1770** بعد طوافٍ في عِدَّة مدنٍ بدُوفِينيه، متنكرًا خشيةَ الاعتقال، ويقيم بباريسَ سبع سنين غيرَ واثق بأحد متمتعًا بجمال الطبيعة في ضواحيها، ويكْسِب عيشَه من نَسْخِ قِطَعٍ من الموسيقا، ويَبْتَعد عن الناس والأصدقاء، ثم يترك استنساخ القطع الموسيقية عن ضعفٍ وعجزٍ فيَغْدُو مُعْوِزًا إلى الغاية.

وفي السنة الأخيرة من حياته يُقَدِّم إليه صديقه دُو جيرارْدِن ملجأً في إرْمنُونفيل البعيدة من باريس نحو عشرين كيلومترًا فيَقْبَله، ويموت فجأةً بعد ستة أسابيع من انزوائه في هذا الكوخ، وكان ذلك في **3** من يوليه[1] سنة **1778**، تاركًا هذه الحياة وما فيها من أحزان وآلام، ويُظَنُّ على غير حَقٍّ أنه مات مسمومًا أو منتحرًا بطلقة فَرْدٍ، ويُدْفَن بجزيرة الحَورَ في إرْمنُونفيل.

ويَرْقُد في هذه الجزيرة حتى سنة **1794**، وفي **20** من فَنْديمُور من السنة الثالثة «**11** من أكتوبر[2] سنة **1794**» يُنْقَلُ رفاته باحتفال عظيم إلى مدفن العظماء بباريس «البانتيون» وفقَ مَرْسوم أصدره مجلس العهد، وذلك مع بقاء ضريحه قائمًا في تلك الجزيرة حيث مَكَث مدفونًا ستة عشر عامًا.

كان رُوسُّو سيئَ الحظِّ فعاش شريدًا بائسًا، ولعله كان لهذا أثَرٌ في عبقريته

(1) تموز.

(2) تشرين الأول.

ووضع مبادئه، وعاش رُوسُّو في بيئة فاسدة قاسية، وكان لهذا عملٌ عظيم في نُضْج آرائه والكشف عن كثير مما يحيط به من المفاسد والشرور والجَهْرِ بآرائه في الاجتماع والسياسة والاقتصاد والتربية.

وكان روسُّو عليلًا فآثر الحياة الهادئة على غيرها، فكان هذا عاملًا في عُمْق تفكيره، وحَمَل روسو على العقل ورَفَع من شأن الشعور فقال إن العقل إذا ما استطاع أن يَنْقُض العقيدةَ بالله وأن يُنْكِر الخلود فإن الشعور يؤيدهما، فلماذا لا نصدق الشعور بدلا من الشكِّ الجامح الذي يؤدي إليه العقل؟ وقد أراد كَنْتَ أن ينقذ الدين من العقل كذلك، فقامت رسالته على ذلك أيضًا.

ويُعَدُّ رُوسُّو من أعظم من أنجبت فرنسة من الكُتاب، غير أن آراءه تُقْبَل أو ترفَضُ على حسب الأمزجة، وهو يُحَبُّ أو يُكْرَه ككاتبٍ أوحى بالثورة الفرنسية قبل كلِّ شيء.

والآن يوجد لكتبه معنيان، فبها يُنْفَذُ إلى الذهنية التي كانت سائدةً للقرن الثامنَ عشر، وهي ذاتُ أثرٍ بالغ في حوادث أوربة التي وقعت فيما بعد، وبهذه الكتب يُمثِّل رُوسُّو في عالم الفكرً السياسيِّ مرحلةَ الانتقال من النظرية التقليدية للدولة في القرون الوسطى إلى الفلسفة الحديثة حَوْلَ الدولة.

ولم يعالج رُوسُّو نُظُمَ الدول الموجودة، خلافًا لِمَا صَنَع مُونتسكيو وفُولْتير، فبينا كان مونتسكيو وفولتير، اللذان هما من أبناء الطبقة العليا، يقتصران على المطالبة بالإصلاح السياسيِّ والدينيّ وثَلْم شوكة الاستبداد كان ابنُ الساعِيِّ رُوسُّو، كان ابن الشعب روسو، الذي قضى شبابًا قاسيًا، ينتهي بآلامه إلى ضرورة تجديد الدولة والمجتمع تجديدًا كليًّا، ومن قول رُوسُّو: «لم يَهْدِف مونتسكيو إلى معالجة مبادئ الحقِّ السياسيّ، وإنما كان يكتفي بمعالجة الحقِّ الوضعيِّ «القانون» للحكومة القائمة، فلا يمكن أن يَبْدُو اختلافٌ بين دراستين أكثرَ من هذا»، ومن ثمّ يكون رُوسُّو قد تَمَثَّل موضوعه مختلفًا عن موضوع «روح الشرائع» كلِّ الاختلاف.

وعن رُوسُّو وما كتَبَ يقول المؤرخ الاسكتلنديُّ المشهور تُوماس كارْليل:

«لقد قَدَر العالَم على إلجاء ذلك البطل إلى الأسطحة، وعلى اتخاذه أضحوكةً يُسَخَرُ منها كما يُسْخَر من البُلْه والمجانين، وعلى إجاعته وتركه يتضور جوعًا كالوحش المسجون، فهل قَدَر العالم على منعه من إضرام الثورة وإشعال الأرض نارًا تلَظَّى؟ لقد وجدَت الثورةُ الفرنسية إنجيلها في كتابات رُوسُّو، وقد أحدثت آراؤه الشبيهة بالجنون في آفات المدنية وتفضيلُه عيشَ المتوحشين على عيش المتمدينين جنونًا فاض في أنحاء فرنسة وغمرها».

**عادل زعيتر**

**نابلس**

# الترجمة

## تنبيه

استُخْلِصَتْ هذه الرسالةُ الصغيرة من كتابٍ أكثرَ اتساعًا، من كتابٍ شَرَعتُ فيه قديمًا من غير أن أزِن قدرتي فتركته زمنًا طويلًا، وهذا المقتطفُ هو أعظمُ ما أمْكن اختيارُه من مختلفِ المختارات التي اقتبستُها مما كتَبْتُ، وقد بدا لي أنه أقلُّ تَفَهًا مما يُعْرَضُ على الجُمهور، وعاد ما بَقِي غير موجودٍ.